

أَنَمَاطٌ وَأَنَوَاعٌ مِنَ الْإِيمَانِ

أُخَى :

إن الغاية من الأعمال الشرعية التعبدية منها والتعاملية والخلقية التقرب بها إلى الله تبارك وتعالى . لا بلوغ الأهداف النفسية ، والمطامع الشخصية التى لا نهاية لها ولا حصر . فإن العبودية تقتضينا أن نعيش فى فلكها دواما بصورها ومعانيها بغض النظر عن النتيجة لنا أو علينا فإن تقدير النتائج من حق المعبود لا من حق العابد . ومن حق الرب لا من حق العبد .

وقد علمت أُخَى أن النفس البشرية لا تملك هذا الحق وإن ادعته أو تظاهرت به فذلك هو الافتراء المحض ، والضلال المبين .

وقد علمت أُخَى أن مهمتنا تنحصر فى ملاقة الله بما يحب ويرضى ، وفى ملاقاته بسؤال العفو والعافية من غير اعتماد على أعمالنا ، ولا نظر إلى ما كان منا ، فإن أعمالنا لا قيمة لها مقابل نعمه علينا . هذا إذا كانت خالصة له صادرة من أعماق قلوبنا بمقتضى عبوديتنا له . فإذا كانت من أنفسنا ولحسابها الإنسانى فإنها غير جديرة بالرفع ، ولذلك لا وزن لها ، ولا جدوى منها . ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

وقد علمت أُخَى وربما لا قيمة لعلم أمثالى علمت وفوق كل ذى علم علم أن العمل الخالص هو الذى يكون مجرداً من حظوظ النفس وأهوائها أى لا يكون مراداً به هدفاً من أهدافها وغاية من غاياتها . إنما لا بأس أن يتوسل العبد إلى ربه بصالحات الأعمال ليصرف عن نفسه ما يخشى ويخاف من الشرور والأضرار ، ومن البلايا والمصائب .

﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ ومثل ذلك أن يدعو العبد ربه بالصيغة التى

يختارها في حدود المآثورات النبوية ليشفيه من علة ، ويبرئه من مرض وسقم ، وأن يأخذ بيده إلى ما فيه سعادة الدارين . فإن الدعاء مظهر الفاقة والافتقار ، ودليل الاعتراف بالعبودية لله تبارك وتعالى . أما الأعمال الأخرى التعبدية فله أن يأتيها بنية التقرب إليه سبحانه . وهو يفعل بعبده ما يريد .

ولما كان لا نهاية للقرب ولا آخر للوصول إليه سبحانه : كذلك لا نهاية للأعمال ولا آخر لها ولو عاش العابد ملايين السنوات .

وقد علمت أخى أن النفس البشرية بمقتضى طبيعتها لها في كل فترة طمع ، وفي كل لحظة أمل حيث تتصور النتائج عقب كل عمل ، دبر كل فعل . فلست أدري كيف يكون حالها إذا قضى الله حوائجها بمجرد عرضها ، وقد عرفناها لا تلجأ إلى ربها إلا عند الشدة والبأس ، والفقر والضرر . أليس من فضل الله علينا جميعاً أن يمسك عنا ربنا حوائج أنفسنا علّها بمقتضى حوائجها تلازم باب ربها وخالفها بشعور الفاقة والافتقار إليه سبحانه .

أخى :

إن الله غنى قدير ، ومن صفاته الكرم ، الجود ، العطاء ، ولكنه يمسك عن قضاء الحوائج بصفاته الأخرى الحكيم العليم القابض المانع الحكم العدل اللطيف الخبير . فإن صفاته كلها ذاتية بعضها من بعض يعطى ويمنع بمقتضى حكمته الربانية يُعجل لمن يشاء ، ويؤخر لمن يشاء ، ويقبض ويسط في حدود مصلحة السائل ، والعبد الطالب . ولذا اعتبر العارفون بالله منعه عطاء ، وقبضه بسطاً . فهو العزيز الحكيم .

وقد علمت أخى أن الرجل الذى يطيع الله ويعبده . إنما يقصد بطاعته وعبادته وجه الله ومرضاته . فإذا كان الأمر كذلك فلا نهاية لمرضاته . ولا آخر لقصد وجهه الكريم ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿ .

فانظر أخى إلى كلمة الأعلى . أين مداها ؟ وأين حدودها ومعالمها ؟ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا..... ﴾ الآية .

وللعلم أقول : إن أول العبودية والإيمان الحمد لله رب العالمين ونهايتهما كذلك . ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فالحمد لله والشكر له . وعليه أقول إن من كان شأنه كذلك ويعبد الله بهذا القصد فليس له أن يتوقف عن طاعته وعبادته ولو فقد الدنيا والآخرة . وذلك محال . ورب رجل يطيع الله ويعبده خشية العذاب ، وطلباً للثواب فمن كان هذا شأنه وقصده فالعذاب والثواب محلها الدار الآخرة لا دار الدنيا . إذا فالمشوار طويل ، والطريق ممدود . فلا داعي للاستعجال حيث العذاب والنعيم يكونان بعد الموت لا قبله ، فإذا طلبهما أو طلب النعيم في الدنيا فلا نعيم له في الآخرة حيث أخذ نصيبه من الدنيا شأنه شأن الكافر . أعاذنا الله وإياكم من الكفر والضلال فأما الذى يطيع الله ويعبده ليسعد في حياته الدنيوية فإنه تعالى يكرمه ويعطيه مراده في الدنيا وقصده منها . وهو بهذا قد ضل السبيل ، وأخطأ الطريق ، وتجاوز الحد ، وخسر آخرته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أعاذنا الله وإياكم من ذلك . ورب آخر يعبد الله ويطيعه دون فكر وروية . ودون تقدير ولا تحرير بمقتضى الوضع والنشأة والبيئة . ومن كان هذا شأنه فهو إلى التقليد أقرب منه إلى التحقيق . ولذا فهو معرض للخطر في كل لحظة إلا من رحم الله وهدى . ومثل هذا لا ينمو الإيمان في قلبه ولا يصعد أبداً إلى أعلى . فهو في مكانه . ويموت على ما عاش عليه من التقليد والجهل . وأمره إلى الله ورب رجل آخر يعبد الله ويطيعه وهمه الأكبر دنياه ، ولا يكون منه لربه إلا ما فرض عليه من العبادات كيفما اتفق وحيثما يكون ومن كان هذا شأنه لا يذوق طعم الإيمان ولا يجد حلاوته ولا يصل إلى مراد الله منه يعيش كما تعيش الأنعام حول العلف والإعمل بلا روية ولا تبصرة . ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ورب رجل آخر يعبد الله ويطيعه ويحب ذلك من قلبه . ولكنه لا يتزود من النوافل المقربة ولا يأتي

الأسباب المضاعفة للإيمان المنمية لليقين إنما يتمنى ويطلب ويرجو ويقول لمن يعتقد فيه الخير اذعُ الله لي : وما إلى ذلك من الأقوال والأفعال . أما الحياة الدنيا فيحرص عليها وعلى أسبابها بهمة ونشاط كأنما هي الأصل وغيرها هو الفرع . ومثل هذا ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ وَآخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ومثل هذا نرد عليه بقول الرسول عليه الصلاة والسلام . « ليس الإيمان بالتمنى . ولكن ما وقر في القلب ، وصده العمل » . أي كما قال .

وربّ رجل آخر يعبد الله ويطيعه ، ويحاول أن يشغل فراغه كله بالطاعة والعبادة راجياً من هذا أن يلقاه الله بالترحاب ، ويعانقه بالرحمات والإشراقات ، ويفيض عليه بالفتوحات المادية بحيث يكمل شعوره بهذا ، ويثبت يقينه بالوصول إليه ، وأنه بلغ من الأمر شيئاً محسوساً . وقد تولاه الله بما أفاض عليه . فصار له شأن يذكر وخير يذاع . فهذا هو المفتون أبداً . المغرور أبداً . المعجب بنفسه أبداً . المرائي أبداً . الضال الطريق القويم أبداً . أعاذنا الله وإياكم من السلب بعد العطاء ، والكفر بعد الإيمان والجهل بعد العلم ، فالحمد لله والشكر له .

أخى :

أحسبني بهذا العرض عقدت الأمور وشوكت الطريق وبشت الأغلام في الطول والعرض ، بحيث لا خلاص ولا منجى ولا فرار ولا بلوغ . فوالله إني لا أقول إلا ما علمت وما أحسست به وأدركت وفوق كل ذى علم عليم . فإذا لم يكن الأمر كذلك ، والخطر أشد من ذلك فعلام كان رسول الله ﷺ يضرع ويناجي ويدعو ويبتهل بالصيغ المألوفة لدى المسلمين جميعاً مع أن الله قد بشره بالمغفرة ومدحه وزكاه وصلى عليه وتولاه ، وأمرنا بالصلاة عليه تكريماً وتفضيلاً بحيث إن الصلاة عليه تقرنا إلى الله سبحانه وعلام كان يركع ويطيل ثم يسجد ويطيل حتى ظنت السيدة عائشة رضي الله عنها أنه قبض فوالله إن من ذاق عرف ، ومن التمس الطريق شعر بالصعوبة التي تعترضه والحواجز التي توضع أمامه ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ .

أخى :

سألتنى كيف العمل ؟ وما الطريق إلى الخلاص من عداوة النفس والشیطان ؟. وعليه أقول لأخى : إن من النادر أن يغلب الواحد الاثنين . وبخاصة إذا كان الاثنان أقوى من الواحد ، أو أحد الاثنين أعلم وأمكر وأدهى من الواحد ، والثانى أجذب وأسحر من ساحر جذاب وعالم ماكر لا يمكن التغلب عليهما بحال فانظر أخى وتدبر . عقل الإنسان واحد ، والإنسان واحد ، النفس والشیطان اثنان . وهما ألد أعدائه ، أعداء العقل ، أعداء الإنسان ، فالنفس لها صفة السحر والجذب ، والشیطان له صفة العلم والمكر ، والإنسان دونهما في الصفتين . إن الله الذى خلقنا وخلق هؤلاء لما يعلم من ضعفنا وقوتنا فرض علينا فى اليوم مرات عديدة فرضاً نعاقب عليه إذا تركناه أو تجاوزنا عنه أو تساهلنا فيه لكى نستعين به ونستمد القوة منه . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

اسمع أخى بقلبك لا بأذنك ، وأنصت إلى بروحك لا بجوارحك . فإن مصير الجوارح الفناء ، ومصير الروح البقاء . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . أى حقيقتك نعبد . وقد ذكرت هذه الحقائق على قلبك ولسانك وهى صفاته الأربعة ربّ - إله - رحمن - ملك - ولكل صفة من هذه الصفات معانيها . فالربّ هو الذى يرى خلقه ، ويتولى شئونهم ينفع ويضر . ويعطى ويمنع ، يرفع ويخفض وما إلى ذلك من أفعال الرب وصفاته . والإله هو الذى يعبد بحق ، وهو المعبود فى التّوجود بحق ﴿ وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحى القيوم بديع السموات والأرض . الرحمن هو الذى يرحم ويرأف فالكائنات كلها قائمة برحمته . موجوده بحكمته إن اللقمة تضعها فى فمك لا تأتى إليك إلا بأمره ورحمته . ولولا أنها مأمورة لما استطعت هضمها ولما لانت لك وذابت فى حلقومك وبلعومك . انظر أخى كيف تستطيع أن تذبح الحيوان وتأكله بينما تحجم نفسك وتأنف أكل حشرة من الحشرات لأنها غير مأمورة وليست من نصيبك . فانظر أخى وتدبر فى صفات ربك كيف يرى خلقه ، وكيف يعطى ويمنع ، ويقبض ويسط . وانظر أخى إلى هذا الترتيب الكونى والنظام الربانى . ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرُبُّكُمْ أَغْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ الملك :

هو الذى يملك الجزاء ويقدر عليه . ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى الوقت والجزاء مملوك له فإنه سبحانه كما يملك الجزاء يملك الوقت . وقد خص يوم الدين بالذكر لارتباط الثواب والعقاب به خالياً من أى اعتبار آخر مما تعارف عليه الناس فى الدنيا من الموازين والمقاييس ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ كما يقول الموظف يوم القبض عند المرتبات الشهرية بمقتضى أيام العمل فإن العامل ربما ينسى ما عليه من الجزاء أو الساعة التى تخلف فيها عن العمل . وفى هذا اليوم يعلم أو يخبر بماله وبما عليه ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ حيث الحكم والقضاء والفصل والميزان والثواب والعقاب على أساس الأعمال الصالحة والسيئة من تعاليم الدين الإسلامى . ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم تكون الكلمة فيه لله الحق بمقتضى كتابه المنزل ونبه المرسل ﴿ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ . يوم تكون الإدانة للنفوس بما كان منها من خير أو شر ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ فمن أدان نفسه فى الدنيا أطلقها الله فى هذا اليوم بلا قيد ولا شرط . ومن أطلقها فى الدنيا أدينت فى هذا اليوم ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ سليم من التبعات - سليم من الأغيار - سليم من الحظوظ والأهواء سليم من الرعونات سليم من الآثار السيئة . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ إن من زكاهها فى الدنيا يلقى الله فى هذا اليوم وليس عليه من الذنب ما يجره إلى النار التى أعدها الله لتزكية النفوس من أدرانها لأن نار الآخرة لا تحرق بطبيعتها . إنما تحرق بغضب الله وسخطه على الإنسان .

ولذلك يمر عليها المؤمن الذى زكى نفسه فى الدنيا كالبرق الخاطف لا يشعر بحرارتها إلا لما كما يشعر العامل بالرايش الساخن الذى يعمل على الخرطة فإن هذا لا يعوقه عن عمله . وربما يكون إحساس بعض المؤمنين كإحساسهم بالماء الساخن يستعملونه فى الغسل والوضوء ساعة البرد القارس حيث يجدون اللذة فى المس والاستعمال ، ويشعرون بالراحة والأنس فى الجمع بين الساخن والبارد . وهذا شأن المؤمن فى الجمع بين الأضداد - يوم الدين - ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ .

أخى :

إن القلب يضطرب ويرتجف من تهيب اللقاء لشدة الموقف وما يرى من أحوال الناس ؛ فيأذن الله له بالمرور على الصراط ليخف من حدة الاضطراب وشدة الارتجاف في هذه الحالة يحصل التفاعل فتطمئن النفس حيث ينادى المنادى ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَنِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ .

أخى :

إن من قدر هذه الأمور في الحياة الدنيا وأعد العدة عاش سليماً من الموانع والأعراض : ومن لم يقدر هذا لقيه الله بقوله يوم القيامة . ﴿ أَأَنْتَ أَتَيْنَا فَتَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

أخى :

إن السلامة في مراجعة القرآن وتلاوته ، وتدبر ما جاء من عند الله . فوالله الذى لا إله إلا هو إن تلاوة القرآن بتدبر وإمعان مع الإيمان واليقين بأنه من عند الله وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تحمل المؤمن على الاستعداد . وهى التى تشده إلى تقوى الله شداً وتسوقه إليها سوقاً . ﴿ أَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

* * * *